

وضع المرأة الجزائرية إبان القرن 19 من خلال كتابات الأمير عبد القادر.

The status of Algerian women in the 19th century through the writings of prince Abd-el-Kader

خالدي بلعربي^{*1}

¹ جامعة حسيبة بن بوعللي الشلف (الجزائر)، b.khaldi@univ-chlef.dz

تاريخ النشر: 2023/06/17

تاريخ القبول: 2023/06/11

تاريخ الاستلام: 2022/10/09

ملخص:

يُعد موضوع المرأة العربية المسلمة من المواضيع التي لقيت وما تزال مزيدا الاهتمام من لدن الباحثين الغربيين والمستشرقين، والرحالة، والقناصل الأجانب، ويكمن الهدف من وراء ذلك هو تقصي المعلومات التي تخص المرأة المسلمة، وذلك ليس بهدف الفضول العلمي فحسب، بل من أجل الاطلاع على نقاط الضعف واستهدافها، والتعرف على نقاط القوة وإضعافها، ولعل أسئلة الضابط توماس يوجين الموجهة للأمير عبد القادر لما كان سجيناً بفرنسا 1848 / 1852 تصب في هذا الاتجاه، وهي أسئلة توجي بأن دوماس كان على اطلاع مسبق عن الوضع الذي كانت تعيشه المرأة الجزائرية، كما أن أجوبة الأمير عبد القادر كانت من صميم الشريعة الإسلامية (القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة) فضلا عن تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام، بيد أن إجابة الأمير عبد القادر كانت تصب فيما يجب أن يكون عليه وضع المرأة وفق نصوص الشريعة، بينما طروحات دوماس كانت تدل على واقع المرأة المعيش في ظل الجزائر العثمانية ثم فترة الاحتلال الفرنسي، ولذا نسجل الرأي والرأي الآخر في الحوار الذي دار بينهما. كلمات مفتاحية: المرأة، الأمير عبد القادر، يوجين دوماس، الميراث، الزواج، تعدد الزوجات، الطلاق، عمل المرأة

Abstract:

century were one of the most important topics that many Western writers and orientalisists talked about, The view of the Western literature on Muslim Arab women has been dominated by stereotyping and stereotyping. Perhaps the problems that were raised at the time and still revolve around women's equality with men.

The unequal distribution of wealth in inheritance between the sexes, according to their opinion, as well as polygamy approved by Islamic law.

Some of the flags of Arab and Islamic thought and culture have defied the defense of Arab Muslim women against those tendentious writings that want to undermine the status of women, including those of Prince Abdolkader during his capture in France in the period between 1848 and 1852.

Keywords: women; polygamy; Prince Abd-el-Kader; Islamic law; Dumas; the status of women.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة :

شغلت قضايا المرأة العربية المسلمة في الجزائر خلال القرن التاسع عشر بال كثير من الكتاب والدارسين لاسيما المستشرقين منهم، وكانت نظرة الكتابات الغربية وما تزال حول المرأة العربية المسلمة تشوبها الأحكام المسبقة، والصورة النمطية، ولعل معظم الأسئلة التي أثرت آنذاك كانت تدور حول مساواة المرأة مع الرجل، والتوزيع غير العادل للثروة بين الجنسين في الموارث، نهيك عن تعدد الزوجات الذي أقرته الشريعة الاسلامية، وبدا غير مقبول بالنسبة لكثير من الكتاب وقد رأوا فيه امتهان لحقوق المرأة، كما أن هناك قضايا أخرى لا تقل أهمية مثل تعليم المرأة في المجتمع الاسلامي، وكذا الزواج المبكر، إلى جانب الحجاب، وقضايا هامة أخرى ماتزال تسيل الكثير من الحبر إلى يومنا هذا.

تصدى بعض أعلام الفكر والثقافة للذود عن المرأة الجزائرية خصوصا، والمرأة العربية بوجه عام، أمام تلك الكتابات الغربية المغرضة التي تريد النيل من مكانتها والتي منحها لها الاسلام الحنيف، وقد حاول الامير عبد القادر الجزائري وهو في الأسر بفرنسا في الفترة ما بين 1852/1848 التصدي لمثل تلك المغالطات، والافكار الزائفة، وذلك عندما سأله الكاتب يوجين دوماس (تشرشل، 2009، صفحة 321) عن أهم القضايا التي كانت تشغل بال الرأي العام الفرنسي خصوصا والغربي عموما إزاء المرأة العربية المسلمة.

والواقع أن أسئلة الجنرال دوماس حول المرأة العربية المسلمة آنذاك توجي بأن دوماس كان على اطلاع مسبق عن الوضع الذي آلت إليه مكانة المرأة في العالم العربي والإسلامي، ودورها داخل الأسرة، ولعل أسئلته تلك للأمير هي من أجل معرفة رأيه، أو موقفه من كثير من القضايا الهامة التي تتعلق بالمرأة، ولذا فهو يحاول التعمق والحصول على آراء أخرى عن طريق طرح أسئلة استفزازية تحتوي على جانب من الإثارة.

تجدر الإشارة إلى أن الأمير عبد القادر قد تلقى عشرين سؤالاً من لدن الضابط السالف الذكر، والظاهر أن أجوبة الأمير كانت تعتمد على ما جاءت به الشريعة الإسلامية بخصوص المرأة، وأحياناً على الفهم الشخصي كيف لا وأن الأمير عبد القادر يعد من الأعيان البارزين آنذاك، بل كان على دراية بأمور الدين الإسلامي وكذا الأمور الدنيوية في عصره وهو الذي أدار دفة الحكم في بلاده مدة تزيد عن خمسة عشرة سنة.

إذن ماهي الصورة النمطية التي كانت للكتاب الأجانب خصوصاً والمجتمع الغربي عن المرأة العربية المسلمة؟ هل كانت كل تلك التساؤلات والطروحات حول المرأة العربية المسلمة حتماً خاطئة؟

ترى كيف بدت نظرة الأمير عبد القادر للمرأة العربية المسلمة خلال القرن التاسع عشر؟ ثم هل كان الأمير عبد القادر من خلال تلك الاجابات محافظاً أم متحرراً تجاه المرأة العربية المسلمة؟ وهل كان الأمير عبد القادر يجيب وفق ما يجب أن يكون؟ أو وفق ما هو كائن آنذاك؟

2. طبيعة الأسئلة ومحاورها:

إن المتمعن للأسئلة الموجهة للأمير عبد القادر من طرف الضابط دوماس حول المرأة العربية المسلمة يستشف من خلالها أن السائل كان يجهل بعض الأجوبة حقاً، لكن من جانب آخر يبدو أنه كان يستفز الأمير عبد القادر بغية معرفة رأيه الشخصي بشكل عفوي وصریح وصبر أغواره ذلك أن دوماس عاش بالجزائر حوالي عقدين من الزمن وبأشهر عدة وضائف عن فنون شتى، كما اطلاع على كتب ووثائق هامة عن الجزائر، وخالط العارفين

بأحوالها، ولذا فإن أسئلته لم تكن لتصدر عن جهل بل هي محاولة لفهم الآخر والتعمق في دراسته من أجل الاطلاع نقاط القوة ومحاولة اختراقها، وكذا معرفة نقاط الضعف والتغلغل من خلالها (الله، 2009، صفحة 183).

الملاحظ أن تلك الأسئلة تحمل في ثنهاها أحكاما مسبقة وقاسية على العنصر المسلم بغض النظر عن الجنس سواء كان ذكرا أم أنثى، فحين لما يتحدث صاحبها عن النصراري يبرز الجانب الايجابي، وكأني بهم بدون أخطاء أو ليس بشرا، ولما يحاول المقارنة بين الطائفتين المسلمة والنصرانية ويظهر التحيز العمي للنصراري كما يبدو أن السائل يحاول أن يحرم ما أحل الله ويحرم ما أحل الله، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر قضية الطلاق والميراث وهي أمور فصل فيها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

الظاهر أن جل الأسئلة كانت تتمحور حول الزواج في البلاد العربية وما يترتب عنه، فضلا عن العلاقات الزوجية داخل الأسرة المسلمة وهو ما يفيد بأن الدراسات الغربية كانت وما تزال تركز دراساتهما على اللبنة الأساسية الهامة في بناء المجتمع المسلم، ثم التسلسل إليها من أجل تحطيمها.

وبناء على ما تقدم فقد لخصنا تلك الأسئلة في ستة (القادر، 2015، الصفحات 304-306) محاور أساسية ثم رتبنا على النحو التالي بالرغم من ورودها في كتاب تحفة الزائر.

1.2 الزواج والعلاقات الأسرية عند المسلمين:

يندرج ضمن هذا المحور ستة أسئلة تتعلق كلها بالمراحل التي يمر بها الزواج لدى المسلمين فمن زواج ينطلق من عدم التعارف بين الزوجين في البداية وبلا نظرة متبادلة بين الطرفين، حيث يقع أحدهما على الآخر وكأنهما غرباء، ومرورا بدفع المهر حيث يحسب الزوج أنه قد اشترى سلعة بل يحسبها ملكه، ثم استفسر السائل على خطبة الرجل الطعن في السن للبنت التي تصغره بعقود وما يترتب عن ذلك من انعكاسات سلبية على المجتمع، ثم

ينتقل يوجين دوماس إلى قضية تعدد الزوجات فضلا عن اتخاذ الجوارح وما ينجر عنه من غيرة بين النساء وأثارها الوخيمة على الأسر، ثم يعرج السائل إلى اشكالية الزواج المبكر في البلاد العربية ومساوئه والذي تعد البنت حسب يوجين من أهم ضحاياه وفي الأخير يخلص محاور الأمير إلى معضلة الطلاق التي تنخر المجتمع المسلم فحين المجتمعات الغربية هي في منأى عنها حسب يوجين، وقد وردت تلك الاسئلة انطلقا من ص 273 إلى ص 288.

2.2 العلاقات الأسرية وطبيعة التعامل بين الزوجين:

ورد في هذا المحور أربعة أسئلة يستفسر صاحبها من الأمير عبد القادر طريقة التعامل بين الزوجين فب البلاد الاسلامية حيث يطغى على تلك الاسئلة الصورة النمطية حيث تجعل من الرجل العربي زوج متسلط على زوجته التي لا يشاورها ولا يشاركها الرأي ولا يكلمها إلا عندما يريد قضاء وطره، كما يطلب منها القيام بأعمال شاقة فوق طاقتها، فيحين يناقض دوماس نفسه حينما يستفسر من الأمير عن الغيرة الزائدة عند المسلمين حيث لا يسمحون للمرأة بمغادرة البيت ولا لقاء بعض الاقارب ولا أصدقاء أزواجهن، وفي ذات الوقت يتساءل يوجين عن العرب الذين لا يتزوجون المرأة إلا من أجل جمالها والقليل منهم يتزوجون من النساء لأصلهن، ويذهب أبعد من ذلك حينما يقول إن النصرارى يتزوجون المرأة لعدة اعتبارات منها الأفعال الجميلة.

3.2 عمل المرأة المسلمة :

يوجين دوماس يتساءل عن بقاء بنات الأكابر من المسلمين بدون عمل يشغلن به أنفسهن ولا هم لهن إلا في التبرج وابداء مظاهر زينتهن، ويبدو متأثرا لما ينجر عن ذلك من شرور لكون البطالة أم الرذائل، وإذا كان في تسأوله بعض الصدق لأن الحاجة هي التي تدفع المرء من أجل العمل وبما أن هؤلاء النسوة ينتمين إلى عائلات ميسورة يبدو أنهم غير ملزمات بالقيام بأي اعمال مهما كانت، غير أن هذه المسألة لا تنطبق على شريحة واسعة من النساء في المجتمع العربي، حيث في سؤال سابق له ذكر أن المرأة تقوم بأعمال مضيئة.

4.2 المرأة المسلمة والتعليم :

كعادته يعمم المظاهر السلبية على المجتمعات العربية الإسلامية فيحين يحاول تبرئة المجتمعات الغربية المسيحية وفي هذا الصدد يتوجه إلى الأمير بسؤاله حول عدم إقبال المرأة العربية على التعلم وهو ما يجعل منهن غير عارفات بأمور شتى مما يوقعهن في الخطيئة.

5.2 المرأة المسلمة والميراث :

بيدي يوجين استغرابه من كون المرأة في ظل الشريعة الإسلامية تراث أقل من الرجل ويعتبر ذلك من عدم المساواة بين الأبناء.

3. إجابات الأمير عبد القادر عن أسئلة الضابط يوجين دوماس (تشرشل، 2009، صفحة 337):

لقد كانت إجابات الأمير عبد القادر عن أسئلة يوجين دوماس حية في كل ما يتعلق بالمرأة العربية المسلمة ضمن 41 ص وتلك الإجابات موجودة ضمن كتاب نجله تحفة الزائر (القادر، 2015، الصفحات 273-313) في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر من ص 273 إلى غاية ص 312 (إتيان، 2001، الصفحات 287-288)

إجابات الأمير عبد القادر مستوحاة من القرآن الكريم وبعضها الآخر مقتبس من السنة النبوية الشريفة، وقد ألفيناها أحيانا في معرض رده عن سائله يقوم بتصحيح ما ورد في السؤال من خطأ ثم يعطي الجواب الشافي فعلى سبيل المثال حينما سأله دوماس بأن العربي لا يحترم زوجته، فكانت إجابة الأمير مباشرة " بأن الأمر على خلاف ما سمعتم"، ثم أخذ في التفاصيل، أما إذا تعلق الأمر بسؤال يحص حدود الشرع نجد الأمير على الفور يذكر ما ورد فيه من نص شرعي إذ لا اجتهاد مع النص، وهناك إجابات أحال السائل إلى سفر التكوين والإصحاح الثني والعشرين، والثلاثين، وأحيانا يستشهد بأقوال سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام إذن المرجعية الأولى التي اعتمدها الأمير في معظم إجاباته مرجعية دينية وقد أظهر

بأن للرجل اطلاع واسع سواء في الشريعة الإسلامية أو الديانة المسيحية حيث دائما كان يلفت نظر السائل إلى المسائل التي طرحها على أنها وردة في الديانات السماوية السابقة لاسيما إذا عرفنا أن السائل كان يبدأ أسئلته بذكر النصارى وما هو حاصل عندهم بشأن المرأة ثم يأتي على ذكر المسلمين.

كما تتضمن الإجابة كثير من أمثال العرب وأشعارهم وحكمهم والتي تدل على مكانة المرأة عند العرب، وذكر في هذا المقام الخليفة المأمون مع النساء.

عجبا يهاب الليث حد سناني وأهاب سحر فواتر الأجفان

ما لي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصيان

أما بالنسبة للأمير عبد القادر وتجربته مع زوجته فقد ذكر ما يلي:

وأخضع ذلة فتزيد تيهياً وفي هجري أراها في اشتداد

فما تنفك عني ذات عز وما أنفك في ذل أنادي

ومن عجب تهاب الاسد بطشي ويمنعني غزال عن مرادي

كما استشهد الأمير بأحداث تاريخية للدول الإسلامية كانت لبعض النسوة العربيات مكانة فيها، وهو ما يدل على سعة اطلاعه وإلمامه بتاريخ الامم الإسلامية على مر العصور، ويتضح من الأجوبة التي جاءت على لسان الأمير عبد القادر أنه كان على اطلاع بالطب خاصة حينما تحدث عن معاشررة النساء، إلى جانب درايته بعلم النفس حيث ظهر الامير من خلال بعض الاجابات كخبير نفسي يغوص في خلجات النفس البشرية ويستقرئ خباياها، أما الاستشهاد من الواقع الجزائري خلال أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال وهي الفترة التي قضها الأمير في الجزائر حوالي أربعة عقود فلا تكاد تلك الاجابات أن تعطينا الصورة الحقيقية لوضع المرأة الجزائرية إلا نادرا.

يصدر هذا عن الأمير عبد القادر في أسرته وهو صاحب 40 عاما وهذا يدل على راحة

العقل وبعد النظر وسعة الاطلاع.

4. واقع المرأة الجزائرية أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي :

تشير الإحصائيات الديموغرافية على أن 95% من سكان الجزائر سواء خلال العهد العثماني أو إبان فترة الاحتلال الفرنسي كانوا يعيشون في الأرياف (moati, 1959, p. 43)، وفي تلك الظروف الصعبة كانت تعيش المرأة وسط المجتمع الريفي في تبعية مطلقة للرجل الذي بيده مقاليد الأمور، إذ أن مكانتها الاجتماعية كانت دون مكانة الرجل فمنذ الولادة يستقبل الذكر بالفرحة والسرور، بينما الأنثى تستقبل ببرودة، أما بالنسبة للزواج فقد كان يتم في سن مبكرة وهذا حسب ما ذكره يوجين دوماس واقره الأمير عبد القادر، بحيث من النادر أن نجد شابا تجاوز العقد الثاني من عمره دون أن يكون بدون زوجة، لكن ليس هو من يختار الزوجة التي تناسبه، حيث أن عملية الاختيار يتدخل فيها الولدين فالأب يحرص على النسب وسمعة العائلة المتوقع التصاهر معها، والأم تركز على الجانب الشكلي للخطيبة وقدرتها على القيام بأعباء البيت الذي يضم عدة أنفس، وكذلك الحال بالنسبة للفتاة هي الأخرى تزوج في سن التاسعة أو العاشرة بدون استشارتها أو النزول عند رغبتها، ويعتبر تقديم المهر حدثا مهما في حياة المرأة، ويتكون في بعض المناطق من مبلغ مالي وبعض المجوهرات (سعيدوني، 2013، صفحة 398).

وفي بعض المناطق الجبلية مثل القبائل فإن المهر يعتبر تعويضا يقدمه الزوج مقابل الزوجة التي يتزوجها، وولي أمر البنت المخطوبة سواء كان أبوها أو أخوها هو الذي يأخذ حصة الأسد من المهر، بحيث لا يبقى منه البنت سوى مبلغا زهيدا بينما يستأثر هو بالباقي لإنفاقه على العائلة وشراء بعض اللوازم التي يستعملها في أشغاله اليومية، وهذا بسبب العوز المادي الذي كانت تعيش كثير من العائلات الجزائرية سواءً خلال التواجد العثماني، أو إبان فترة الاحتلال الفرنسي.

يتكون المهر عند بعض العائلات من قسم عيني مثل كميات من القمح، أو الشعير، أو الحبوب، أو الكباش، بينما نجد بعض الأعراس متمسكة ببعض العادات والتقاليد مثل عُرف سيدي معمر المعمول به إلى يومنا هذا شمال مدينة الشلف أي بالقرب من مدينة تنس، الذي ينص على تزويج البنت بمبلغ زهيد قدر ب20 سنتيم، وقد تحرم المرأة عند بعض العائلات من حقها في الميراث الذي منحها الشريعة الإسلامية إياه إذا تزوجت خارج دائرة العائلة الكبيرة لكون القائمين على تلك العائلات لا يردون من شخص أجنبي أن يتقاسم معهم الممتلكات العقارية أو العينية مثل الحيوانات وغيرها من الموارد التي للمرأة الحق فيها .

وللرجال سلطة مطلقة على النساء في ذلك الوقت فمن حق الرجل تطليق الزوجة لكنها إذا أنجبت له الولد وخاصة الذكر فإن ذلك يوطد العلاقة بينهما ويساعد الأسرة على الاستقرار، ويجعل المرأة في مأمن من الطلاق أو على الأقل يمنع الرجل من الارتباط مع زوجة ثانية وهي الضرة التي تنغص حياة الزوجة الأولى، وتحديد النسل أو تنظيمه غير معمول به لدى سكان الأرياف ذلك لأن الأولياء يبحثون عن عدد كبير من الأولاد من لكي يساعدونهم في الأعمال الريفية الشاقة التي لا تكاد تنتهي مثل الحرث، والحصاد، والدرس، والرعي، كلها أعمال تتطلب وفرة في اليد العاملة .

5.تعليم المرأة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر:

لا تكاد المرأة تسجل حضورها في الحياة الثقافية في المجتمع العربي بصفة عامة والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص، وهذا راجع إلى طبيعة المجتمع الذي يمثل فيه الرجال القوة الضاربة فضلا عن كونهم لم يكونوا يسمحوا للمرأة بالخروج من البيت، وانطلاقا مما تقدم فإن المجتمع في ذلك الوقت لم يكن يولي أدنى اهتماما بتدريس البنات، وقد كان من الصعب على المرأة أن يكون لها دور في مختلف النشاطات التي تقع خارج البيت، ولعل مرد ذلك نابع من غيرتهم المفرطة على المرأة، أو خوفهم الشديد مما قد يحدث لها من مكروه بحيث لا تظهر إلا مع ذي محرم في المجتمع، وذلك امتثالا لقول الرسول ﷺ: " لا يحل

مرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها" (البخاري، 2016، صفحة 1088)، وكذا مخافة أن يُتعدى عليها (الزهار، 1980، صفحة 172)، وعلى الرغم من وجود بعض الفئات المثقفة والمشتغلة في قطاع التعليم العربي الإسلامي بالجزائر آنذاك، غير أنها لم تعر أي عناية لتعليم البنت أو النهوض بها، وهذا راجع بطبيعة الحال غياب استراتيجية تعليمية واضحة المعالم زمن الحكم العثماني في البلاد العربية تخص الجنسين على حد سواء، فضلا عن سياسة الإقصاء والتهميش التي مارستها الإدارة الاستعمارية في الجزائر، وإذا كان الرجل قد بلغ درجة كبيرة من الانحطاط والتخلف في شتى مناحي الحياة، فكيف كان حال المرأة عندئذ؟ وظاهرة إقصاء البنت من الحياة التعليمية توارثه مجتمعاتنا العربية من أسلافها الذين عاشوا خلال العهد العثماني، إذ كانوا يتخوفون على حريمهم، لأن الجنود الأتراك كانوا يعربدون ويعتدون على النساء والصبيان في حال مصادفتهم في الطرقات والشوارع، ومن هذا المنطلق كان البراح ينادي عند خروج الجند في حملة عسكرية بضرورة إبعاد النساء والصبيان من طريقهم (الله، 2009، الصفحات 336-337).

وقد ذكر الأمير عبد القادر في ما نسب إليه في معرض إجابته عن مجموعة من الأسئلة وجهها له الجنرال دوماس، وشطرا منها يتعلق بتعليم المرأة العربية، إذ عرج على ذلك بقوله: "بأن الكتابة مثل السيف من وظائف الرجال، وليست من لوازم النساء، إنما يحتاج إليها الرجال يجمعون العلوم، ويقيدون الحكم، ويضبطون الخراج، ويحفظون التواريخ...، أما النساء فلا يؤلفن كتاباً ولا يستنبطن صناعة ولا فائدة فيحتجن إلى تقيدها بالكتابة لينتفع بها الناس، ولا تنوى النساء قبض الخراج ولا صرف مال في مصارفه، ولا شيء من الوظائف التي تحتاج إلى كتابة فلا فائدة من تعليم النساء الكتابة..." (القادر، 2015، صفحة 301).

ولا شك أن تعليم المرأة عند الجزائريين في تلك الأثناء كان يُنظر إليه على أنه ليس من وظائفها الضرورية إذ أن من مهامها المرأة الأساسية هو القيام على أمور البيت، أما تعلم

القراءة والكتابة فقد يؤدي بالمرأة أو الفتاة بالأحرى، إلى مراسلة من تحبه بواسطة الرسائل الغرامية (القادر، 2015، صفحة 301)، وهذا بالرغم من صراحة الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الدالة على وجوب التعلم لكلا الجنسين دون تمييز، أما الأحاديث النبوية الدالة على طلب العلم لدى الجنسين بدون تمييز فهي كثيرة ومتعددة ومن قول الرسول ﷺ وعلى آله وصحبه: (الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما وآله، وعالم ومتعلم) (الدمشقي، د.ط، صفحة 390).

والواقع أن اقتصار التعليم على الذكور دون الإناث في غضون القرن التاسع عشر سواء في البلاد العربية عامة أو الجزائر التي خضعت للاستعمار في وقت مبكر من نفس القرن كظاهرة ملفتة للنظر لا تخص فقط الأسر غير المتعلمة بل تبدأ من بعض الأسر المتعلمة نفسها، والتي تتكون من الفقهاء والعلماء الذين لا يهتمون بتعليم البنات إلا نادرا ولهذا يصيرون مضربا للمثل تحذوا حذوه ببقية أطياف المجتمع، فضلا عن كون التعليم المتاح آنذاك كان يقوم على الرحلة العلمية التي يقوم بها ثلثة من الطلبة الذكور وما فيها من متاعب ومشاق عسيرة مثل قطع المسافات الطويلة وتجشم عناء السفر ومواجهة قطاع الطرق الذين يتربصون بالمارة، وهذا الوضع لم تكن البنات تستطيع تحمله، زيادة على أن المرأة كما جاء في الحديث الذي رواه أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها" (البخاري، 2016، صفحة 1088)، وعن ابن عباس ؓ أنه سمع النبي ﷺ يقول: "لا يخلوان رجل بامرأة إلا ومعهما محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم"، فقال رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، قال: "أنطلق فحج مع امرأتك" (البخاري، 2016، صفحة 3006)، هذا إلى جانب ظروف الإيواء في المدارس القرآنية والجوامع البعيدة عن الأهل، وتحمل المتاعب. وقد ذكر العلامة أبو رأس الناصر أنه سافر من مدينة أم عساكر إلى مازونة، إذ تكبد عناء السفر والإقامة، وقد واصل تعليمه في ظروف قاسية جداً تفوق قدرة التحمل لدى الذكور فما بالك بالجنس اللطيف، ومن هذا المنطلق لم يكن

في وسع الفتاة السفر لطلب العلم في بيئة بدوية قد تتعرض فيها للمضايقات، ونفس الكلام يقال عن المدن فالمرأة العربية لا تكاد تظهر هناك مطلقاً أيضاً بالنسبة للأسر المحافظة لأن تلك المدن بالرغم من توفر الأمن بها إلا أنها في قبضة النصارى، وقد كانت بعض العائلات إن لم نقل جلها تضع قيود صارمة لظهور المرأة أو الفتاة فإذا أرادت المرأة السفر إلى أهلها تذهب ليلاً مع زوجها لكي لا يراها الناس، وإذا سار الرجل سارت المرأة خلفه ولا تسبقه في المشي أو تمشي إلى جانبه، ولا تختلط المرأة بالرجال في الأسواق أو الولائم إلا مع محارمها، ولا يمكن أن تزور الطبيب إلا نادراً، حتى ولو أدى ذلك إلى وفاتها ولا يراها الطبيب ولا تراه، وهناك من النسوة من كانت تضع قطعة رقيقة من النسيج الحريري على وجهها أسفل العينين وعند خروجها، وكن ترتدين الحايك الصوفي الذي يستر مجموع الجسم بما في ذلك الوجه ولا تترك منه سوى الفتحة التي تسمح لها برؤية الطريق، وتستوي في ذلك نساء الفقراء والأغنياء والعجائز والفتيات.

لعل هذا التوصيف يليق بالنساء اللاتي ينتسبن للفئة الحضرية وأغلبهن من الأندلسيات والتركييات أو الكرغليات أو من العائلات ذات المكانة الاجتماعية المرموقة، فما بالك بالمرأة التي كانت تقطن الأرياف والبوادي؟ فبعضهن لا يرحن البيوت إلا في حالات نادرة جداً إما باتجاه الأهل إذا سمحت الظروف أو زيارة المقبرة لشراء بعض المستلزمات، حيث كانت تقام بعض الأسواق الأسبوعية بالمقابر خاصة بالنساء، وذلك دون علم الزوج وإذا علم بذلك فإنها تأخذ حقها من العقاب الجسدي والمعنوي (مفلاح، 2008، صفحة 242)، وخلال حديث الرجال في ما بينهم عن عائلاتهم فإن الواحد منهم يطلق على أهله اسم الدار، أو يذكرونها باسم الأولاد، والمرأة عندهم ضمير مستتر، وإذا تزوج الشاب فإنه يتوارى عن الأنظار بحيث لا يلتقي مع والده، أو ممن يستحي منهم إلا بعد مدة طويلة وذلك من شدة الحياء، كما لا يجلس الرجل مع والده بحضور زوجته أو أولاده.

وقد ذكر صاحب المرأة الجليلة أن حريم الشيخ بن شرقي شيخ الطريقة الشاذلية وصاحب الزاوية المشرقية الواقعة غربي العطاف كن يطلبن من الشيخ الذهاب إلى حمام ريغة الواقع شرق مدينة مليانة بالرغم من أن حمام بوطريق (هابنسترايت، 2007، صفحة 60) يقع على مرمى حجر من الزاوية المشرقية لكنهن كن زاهدات فيه ويردن الذهاب إلى ما هو أبعد منه أي حمام ريغا، كما يبدو من خلال ما جاء في الكتاب أن الشيخ بن شرقي لم يعترض على طلب حريمه (عتبة، 1953، صفحة 243).

قد أشار صاحب المرأة الجليلة إلى أن الشيخ المشرقي كان حريصاً على تعليم زوجاته بناته، في وقت كان فيهم الصعب على المرأة أن يكون لها أي نشاط ثقافي أو تعليمي وسط ذلك المجتمع المتحفظ على نشاط المرأة خارج البيت مهما كان ولعل العن الشيخ بذلك الفعل أراد أن يعي سنة حميدة في المجتمع الجزائري الذي باتت الأمية تضرب في الصميم وهذا مصداقاً لقول الشاعر أحمد شوقي:

إِذَا النِّسَاءُ نَشَأْنَ فِي أُمِّيَّةٍ رَضِعَ الرِّجَالُ جَهَالَةً وَخُمُولًا

أما بنات الشيخ بن شرقي ففهمن من تتلو القرآن العظيم بتمامه، وفهمن من تقرأ ما تيسر منه (الهاشمي، 1961، صفحة 163)، وقد استدعى الشيخ المشرقي امرأة من منطقة عريب تدعى العالية من أجل تعليم حريمه ولعل ابنته مريم التي وافتها المنية حديثاً تكون قد حفظت كتاب الله على يد الأستاذة العالية (عتبة، 1953، الصفحات 249-250).

والظاهر أن العائلات التي كان يهتم أفرادها بالتعليم والإرشاد كانت تقوم بتعليم البنات أو تأتي بالنساء اللاتي يتقن القراءة والكتابة للقيام بتلك الرسالة، بينما السواد الأعظم من البنات في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية لا يحسن حتى قراءة الفاتحة أو التشهد ولا يقمن الصلاة خاصة أولئك الفتيات اللاتي ينحدرن من أسر تنتشر فيها الأمية عند الذكور وليس لهم تطلع أو اهتمام بالعلم ورجاله، وتظل الفتاة على هذا الحال وتزيد الأمور تعقيداً إذا اقتترنت الفتاة بزواج أمي هو الآخر وللمرء أن يتصور اقتران عائلة أمية بأخرى من نفس التركيبة (تركي، 1981، صفحة 177)، أما إذا تزوجت الفتاة بزواج متعلم

ممکن أن تستفيد من مكتسباته المعرفية، وقد تتقدم المرأة في السن ولكنها كثير من الأمور الدينية مثل ما كان عليه الحال بالنسبة لكثير من الأمهات والجيدات اللاتي عشن في العهد الاستعماري وبعد الاستقلال.

وتتحكم في هذه النسبة المتدنية لتعلم الإناث جملة من العوامل والمؤثرات لعل أهمها الشعور بالخوف الناتج عن حالات الاعتداء التي غالبا ما تكون البنت عرضة لها وما يحقق بالعائلة من سوء السمعة، وقد غذى ذلك الشعور أيضا عامل التدين الناتج عن سيطرة التصوف على حياة الناس والذي وصل فيه الرجل إلى درجة عدم ذكر زوجته بالاسم أمام الناس بل يكتفي عن ذلك بأسماء أخرى بالرغم من الرباط الشرعي المتين الذي يربط بينهما، وقد كان ذلك المجتمع ميلا إلى منع الفتاة من الخروج في وقت مبكر ثم تزويجها قبل اكتمال العقد الثاني من عمرها في وقت ساد الاعتقاد فيه أن وظيفة المرأة تتمثل في القيام بشؤون البيت، وتربية الأولاد والاهتمام بمتطلبات الأب أو الزوج والأبناء، بينما التفكير في تعليمها لم يكن من الأولويات نظرا لبُعد المدارس القرآنية عن بعض الأحياء ووجود فيها طلبة أجنب من مختلف جهات الداخلية والخارجية للوطن، نهيك عن النأي عن اختلاط الإناث بالذكر بالإضافة إلى وجود سيطرة فئة الذكور على التعليم لطلبة ومعلمين وظهور الفتاة أمام الشيخ آنذاك أمر محل حشمة وحياء.

6. نشاط المرأة في الريف خلال القرن التاسع عشر:

إذا بلغت البنت من العمر سبع سنوات تشرع في المشاركة في النشاطات اليومية وقضاء بعض الحاجات التي تكون الأسرة في أمس الحاجة إليها، حيث تكلف بسقي الماء وجلبه إلى البيت وذلك باستخدام الدابة، سواء الحمار أو الأتان، وأحيانا تحمل الدلاء والقرب بيديها، كذلك تغدو مع قريناتها لجلب الحطب، وأحيانا أخرى تقوم البنت بعملية الرعي، يحدث هذا دون أن يفكر الآباء في إرسال بناتهم إلى المدارس القرآنية أو الجوامع القريبة من الحي الذي يسكنونه (lizot, 1973, pp. 96-97).

وإذا وصلت البنت سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر تحتجب عن الأنظار ولا يسمح لها بقاء الأجنب ماعدا المحارم، ولا يمكنها الخروج من البيت بمفردها، مهما كانت الظروف أو الاختلاط بالرجال خاصة عند تجمع النسوة في المقابر في المناسبات الدينية كالأعياد (حليبي، 1972، الصفحات 264-265)، أو الولائم، غير أن هناك بعض النسوة يسترقن السمع وتكون لهن خائنة أعين، إذ كلما مر رجل بالحي أو بالأحرى شاب يراقبونه من بعيد ويتطلعن لمعرفته، وحين يحلّ ضيفا بالبيت يكون الفضول أكثر للاطلاع على الشخصية التي قصدت البيت (بيرروجير، 2011، صفحة 50)، إما رغبة في الزواج إن كن في سن الزواج وكان الزائر شابا، أو من أجل إشباع الفضول فحسب، أما اجتماع المرأة بالضيوف أو تقديم الطعام لهم فهذا ليس من شأن النسوة مهما كان سنهن، وتسود في الأرياف كما في المدن ظاهرة تزويج البنت في وقت مبكر إذ أن كثير منهن قد تزوجن في العهد العثماني، أو خلال الفترة الاستعمارية وبعيد ذلك عند 15 سنة أو أقل من ذلك ونفس الوضع بالنسبة للذكور فإن أوليائهم هم المكلفون بتزويجهم وبعد زواج الشاب يبقى في كفالة أبيه.

تتنوع أشغال المرأة التي تقطن البادية بين أشغال يومية، موسمية والمرأة في بيتها تشبه النحلة في خليتها فهي بالكاد لا تعرف التوقف عن العمل لكثرة الأشغال وتتوزع تلك الأعمال بين المرأة الماكثة في البيت والبنت التي تشارك في الأعمال التي هي خارج البيت طبعا.

شغل المرأة الشاغل في الريف الأعمال المنزلية التي لا تكاد تنتهي، والمتمثلة في طهي الطعام على النار والتي تجد صعوبة في إضرامها خاصة خلال فصل الشتاء الذي يقل فيه الحطب وإذا وجد فإنه يكون معرضا للبلل بسبب المطر، وكذا إعداد الخبز في التنور الذي هو في الغالب خبز الشعير، وفي بعض الأحيان النادرة جدا خبز القمح إلى جانب غسل الثياب، وكنس البيت والساحة المجاورة له وإسطبل الحيوانات، وحلب الماعز أو الأغنام أو الأبقار إن كان رب البيت مالكا للثروة الحيوانية، ورعاية الأبناء في حالة وجودهم، وقد كانت الأسر الجزائرية إبان العهد الاستعماري وإلى ما بعد الاستقلال تتكون من الجد والجدة والأبناء والأحفاد (خوجة، 1982، صفحة 74)، أحيانا هذه الإشغال المنزلية تتعاون النسوة فيما بينهن

للتخلص منها، وهكذا فالمرأة الريفية كانت في حركة دؤوبة لا تعرف كللا ولا مللا (تركي، وضعية النساء الجزائريات في التعليم والعمل في عهد الاحتلال وبعد الاستقلال، 1984، صفحة 183).

تتمثل صناعة الأواني الفخارية ذات الاستعمال اليومي مثل أواني الأكل وقدر الحليب واللبن والزبدة، وتزدهر تلك الأوراش عادة في فصل الربيع حيث تشرع النسوة في جلب الطين من أماكن تواجدتها البعيدة أو القريبة، ثم تقوم بمعالجتها وتشكيلها وفي الأخير تعريض تلك المصنوعات للنار حتى تصير صالحة للاستعمال.

وبعد الانتهاء من صناعة الأواني الفخارية تقوم المرأة بوضع بعض الرسومات على حواف الصحون ووسطها بواسطة بعض الشعيرات التي تم نزعها من المعز تغمس داخل مادة صبغية بنية اللون تعرف محليا "بالمغرة" والمرأة التي تقوم بالرسم على الأواني الفخارية لم تمسك القلم في حياتها إطلاقاً، وإنما تذوقها للجمال جعلها تداعب ريشتها للتعبير عما يجول في خلجات النفس (lizot, 1973, pp. 31-32-34).

أما النسيج فتفتح ورشاته هو الآخر خلال فصل الخريف أو الربيع أحياناً وغالبا ما تنسج النسوة الزرابي والأغطية، والبرانس، والقندورة، وتتم هذه العملية بعد مراحل جد شاقة ومضنية كذلك من غسل الصوف ثم تنقيتها من الشوائب العالقة بها ثم معالجتها بآلات خاصة تستعمل في النسيج يلي ذلك عملية الغزل وبعدها تصبغ الأصواف بألوان مختلفة عند الصباغ، وفي مرحلة متأخرة من كل تلك النشاطات يتم تنصيب أعمدة النسيج واستعمال النوال.

وفي غضون شهر تطوي المرأة نسيجها عند وجود المساعدة من طرف نسوة الحي. وتقوم المرأة الريفية خلال عملية النسيج برسم رسومات على المنسوج خاصة الزرابي، والأفرشة يأخذ أشكالاً هندسية مثل الدوائر، المربعات، المستطيلات، المعينات، كما تعمل على مزاججة الألوان أيضا الأزرق، الأصفر، الأخضر، الأبيض والأسود، والأحمر والأبيض، وكل هذه

النشاطات الفنية التي تجسدها المرأة الريفية من خلال الرسم على الأواني الفخارية، أو على المنسوجات الصوفية، أو على الأطباق المصنوعة من نبات الديدس، إنما جاءت بفعل التجربة واحتكاك النسوة مع بعضهن البعض واستلها من أشكال وألوان وتجسيدها على المصنوعات (درار، 1984، الصفحات 202-203)، وتتولى المرأة مهمة الطحن في أغلب الأحيان ، وتتم هذه العملية خلال النهار والليل خاصة في الأوقات التي يقتصر فيها النهار ويطول فيها الليل، إذ أن المرأة لا تستطيع الانتهاء من الأشغال التي يتطلب قضاءها خلال النهار، لذلك تتجه ليلاً للقيام بعملية الطحن بواسطة أداة حجرية تدار باليد، ومن الحبوب المطحونة في هذه الرحى الشعير بنسبة 90% والقمح أحياناً.

7. خاتمة :

- لقد كان دوماس يوجين محققاً في بعض الأسئلة التي طرحها على الأمير عبد القادر بخصوص عدم سماح المسلمين بتعلم المرأة، فضلاً عن الغيرة المفرطة على النساء التي تنتهي بالحكم بسجنهن في البيوت حتى يتوفهن الموت.
- أصاب الضابط الفرنسي عندما نوه بالعنف الذي كانت النسوة في العالم الغربي عرضة له سواء العنف المادي أو المعنوي نهيك عن إرهاب كاهل المرأة بالأعمال الشاقة داخل البيت وخارجه، وهو ما أكده الأمير عبد القادر.
- دافع الأمير عبد القادر عن المرأة العربية تجاه الطروحات الزائفة التي تقدمت بها الكاتب الفرنسي انطلاقاً مما تقره الشريعة الإسلامية، أو ما جاءت به الكتب السماوية السابقة.
- بالرغم الحرمان الذي لاقته المرأة خاصة في مجال التعليم لم تستسلم للوضع الذي كانت تعاني منه جراء الأمية والتخلف بل شمردت ساق الجد وكانت لها مساهمة جد

فعالة في تربية الأبناء والقيام بشؤون البيت وأحيانا مشاركة الرجل في كفاحه ضد العدو.

8. قائمة المراجع :

المؤلفات:

- أبو القاسم سعد الله. (2009). تاريخ الجزائر الثقافي 1830 / 1954 (الإصدار 6، المجلد 7). الجزائر: دار البصائر.
- أحمد الشريف الزهار. (1980). مذكرات (الإصدار 2). (أحمد توفيق المدني، المترجمون) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- أدريان بيرروجير. (2011). مع الأمير عبد القادر. (أبو القاسم سعد الله، المترجمون) الجزائر: علم المعرفة.
- الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي. (د.ط.). رياض الصالحين. مصر: دار الحديث القاهرة.
- الجيلالي عتبة. (1953). المرأة الجليلة. (1، المحرر) الجزائر: مطبعة تلمسان.
- برونو إتيان. (2001). عبد القادر الجزائري (الإصدار 2). (ميشال خوري، المترجمون) الجزائر: anep.
- بن بكار الهاشمي. (1961). مجموع الحساب والنسب والفضائل والتاريخ والادب في أربعة كتب (الإصدار 1). الجزائر: مطبعة ابن خلدون تلمسان.
- تر ناصر الدين سعيدوني. (بلا تاريخ).
- ج.أو، هابنسترايت. (2007). رحلة العالم الألماني إلى الجزائر، تونس، ليبيا. ناصر الدين سعيدوني، المترجمون) تونس: دار الغرب الإسلامي.
- حمدان بن عثمان خوجة. (1982). المرأة (الإصدار 2). (محمد العربي الزبيري، المترجمون) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- رابح تركي. (1981). التعليم القومي والشخصية الوطنية (الإصدار 2). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- شارلز هنري تشرشل. (2009). حياة الأمير عبد القادر. (أبو القاسم سعد الله، المترجمون) الجزائر: عالم المعرفة.
- عبد القادر حليبي. (1972). مدينة الجزائر قبل 1830 (الإصدار 1). الجزائر: المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي.
- محمد بن إسماعيل البخاري. (2016). صحيح البخاري (المجلد 6). لبنان: دار ابن كثير بيروت.
- محمد بن الأمير عبد القادر. (2015). تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (الإصدار 2، المجلد 2). الجزائر: دار الوعي.

محمد مفلح. (2008). أعلام منطقة غليزان شعراء الملحون. بيروت: دار المعرفة .
ناصر الدين سعيدوني. (2013). الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد
العثماني 1791-1830. الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع.
lizot, j. (1973). Mitidja un village algérien de louarsenis (éd. 1). alger: Algérie .S.N.E.D.
moati, p. (1959). Développement agricole : département d' orléansville. alger.

المقالات:

أنيسة بركات درار. (يوليو- أغسطس، 1984). التأثير الثقافي للأسرة الجزائرية من الاحتلال إلى استرجاع
الاستقلال. مجلة الثقافة (82). صفحة 09.
رابح تركي. (نوفمبر- ديسمبر، 1984). وضعية النساء الجزائريات في التعليم والعمل في عهد الاحتلال وبعد
الاستقلال. مجلة الثقافية (84). صفحة 175-207.